النصر وتجلّياته السياسية في فكر الشاعر الأندلسي

أ محمد بن اعمر
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة تلمسان

ملخص :

لا شك أن فكرة الجهاد في سبيل الله والوطن قد شكّلت في مختلف مراحل الدّولة الأندلسية محوراً أساسياً في ترتيبات سياسة حكام قرطبة، بل كانت "في الحقيقة محكًّا عملياً للنّظام في الأندلس، فمن خلالها يقوّم نجاح أو فشل الأمير الحاكم"[1] لأنها كانت تمثل فعلاً فيصلاً بين الإيمان والكفر والبقاء بالأندلس أو اخلائه إلى الأبد. وقد ترتب عن ذلك كله حروب كثيرة بين المسلمين والفرنجة، جسّدت في الغالب الأعم الرغبة السياسية الجامحة في البقاء وحفظ الإسلام، ويتجلى ذلك بشكل أوضح فيما وصل إلينا من شعر في هذا المقام وبخاصة في الشعر الذي قيل في حدث النصر.

ليس من المبالغة في شيء إذا قلنا إنّ انتصارات جيوش المسلمين في الأندلس على أعدائهم من الفرنجة والماجوس وغيرهم دلّت في مفهومها العسكري والسّياسي على قوة السلطان القائم آنذاك وعظمة الجيوش المرابطة في الثّغور والسواحل وحرصها على سلامة البلاد والعباد من كل مكروه. ونستطيع أن تبيّن ذلك في أكثر من مصدر من مصادر التاريخ السياسي والعسكري للأندلس، وحسبنا هنا ما كتبه ابن حيّان عن سنة 247هـ مبيّنا هيمنة الدولة الأندلسية على أراضيها وتمكنها من حراستها وحمايتها وفي ذلك قال: "فيها -أي سنة 247هـ- كان خروج المجوس إلى الأندلس فلم يكن لهم في هذه الكرّة من الإنبساط في البحر والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ولم يجدوا في السواحل مطمعا لشدّة ضبطها ولاَقوا مع ذلك من البحر هوْلاً عبطت له من مراكبها أربعة عشر مركباً بناحية

البحيرة من الجزيرة فنكبوا عن حائط الأندلس واعتلوا إلى جهة الفرنجة فلم يلقوا ظفرا وأسرعوا الانصراف إلى بلدهم بالخيبة، فلم يكن لهم بعد إلى الأندلس إلى اليوم عودة"[2].

وقال في موضع آخر من كتابه عن الحدث نفسه: "خرجت المجوس إلى ساحل الغرب سنة سبع وأربعين ومائتين في خلافة الأمير محمد في ستين مركبا طالبين فرصة فألقوا البحر محروساً والمراكب تجري فيه مابين حائط إفرنجة في الشرق وحائط جليقية في الغرب"[3]. وقد عدّ المؤرخون الأندلسيون هذه الانتصارات تتويجا لعملية الجهاد التي تبناها حكام قرطبة في أيامهم، مؤكدين أنّ الله هو الذي نصر المسلمين إذ نصروه.

وهذا ما نستشفه ممّا علّق به ابن حيّان عن وقيعة المرْكُويز في سنة 250هـ، وهي الوقيعة التي قاد جيوشها المنذر بن الأمير محمد وفي ذلك قال: "فاشتبكت الحرب واستعرت واصطبر عداة الله لاحتدَامها حيناً، ثم ضرب الله في وجوههم فانهزموا وفشا القتل فيهم، وأخذت السيوف مأخذها منهم واقتحموا نهر إبْرُه، فغرق منهم فيه عالم فات إحصاؤهم فاحْتُزّ من رؤوسهم أعداد عظيمة وأسر كثير منهم واستمرّت الهزيمة بهم واستحرّ القتل فيهم من ضحوة نهار الخميس لاثنتي عشرة خلت من رجب إلى وقت صلاة الظهر منه، ونصر الله المسلمين نصرا عزيزا"[4].

ويسجّل في هذا الصدد أن شعراء الأندلس الّذين تغنوا بهذه الانتصارات وهتفوا بسياستها يتقاطعون مع المؤرخين الأندلسيين في تلك الأفكار ويجعلونها في كثير من الأحيان جوهر أشعارهم التي ترنموا فيها بحلاوة الغلبة ونشوة النصر. ونذكر في هذا الشأن ما قاله الشاعر[*] في انتصار الأمير محمد على من أوقعوا بجيش قرطبة من أهل طليطلة بأندوشر سنة 259هـ:[5]

ألم تعلمـــوا أنّ الإمـــام محمّـــدا ❖ له الله في التأييد والنّصر يُلطفُ

ويتبدّى هذا المنحى الفكري بصورة أوضح في تلك القصائد التي تناولت حدث النصر تناولاً سياسياً شاملاً، وعرّج فيها أصحابها على جملة من الموضوعات الجزئية شكّلت في النهاية مفهوم النصر لديهم، وذلك لأنها قصائد صدرت عن شعراء ذوي خبرة كبيرة

بميدان القريض وسياسة الملك، كما هو الحال عند ابن عبد ربّه وبخاصة في قصيدته الجيمية التي وشح بها نصر الخليفة عبد الرحمن الناصر في أوّل غزوة غزاها والمعروفة بالمنتلون (300 هـ) التي "افتتح بها سبعين حصنا، كل حصن منها قد نكلت عنه الطوائف وأعيى على الخلائف"[6]. وقد استهلها الشاعر بالإشادة بالاسلام والمنهاج الذي ارتضاه له الله عزّ وجلّ وكان فيصلا بين الحقّ والباطل، مبيّنا في الوقت نفسه حلاوة هذا الحقّ ودخول الناس فيه أفواجا، وكأنه يستلهم قوله تعالى: {إذَا جَاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ورأيتَ النّاسَ يدخلُونَ في دِينِ اللهِ أفواجاً}[7]، فقال:[8]

قد أوضح الله للإسلام منهاجـــــا ❖ والنّاس قد دخلوا في الدين أفواجا

ويجعل الشاعر من تزيّن الدّنيا لساكنيها أولى تباشير النّصر، ويقرن ذلك بمدح الخليفة صانع هذا المشهد العسكري والسياسي، مركزا على جوده وبأسه بشيء من المبالغة،وهذه صورة جمالية مستساغة إذا ما ربطنا المقال بالمقام وعلمنا أن "القوّة العسكرية في يد الخليفة هي وسيلة لتنفيد واجباته العامة"[9]. وفي ذلك قال:[10]

وقد تزيّنت الدّنيا لساكنيها ❖ كأنّما ألبست وشْياً وديباجا

يابن الخلائف إن المزن لو علّمت ❖ نداك ما كان منها الماء ثجّاجا

والحرب لو علمت بأساً تصول بـــه ما هيّجت من حُميّاك الذي اهتاجا

ويكشف ابن عبد ربّه عن أصل الصراع بين المسلمين والأعلاج، فيجعله بين الإيمان والكفر، مبيّنا صوت النفاق وزهوقه؛ مما أدى بالكفر إلى الاستسلام واعطاء ذمته. وهذه نفحة سياسية أصيلةتذكرنا بالفتوحات الإسلامية التي كان فيها المسلمون يعفون عن الذميين إذا ما قبلوا بالقواعد الخاصة التي فرضها الإسلام عليهم في هذا الشأن [11]، يقول ابن عبد ربّه:[12]

مات النّفاق وأعطى الكفر ذمّته ❖ وذلّت الخيل إلجاماً وإسراجا

ويبيّن الشاعر أنّ هذا النصر الذي أحرزه الخليفة النّاصر لدين الله في هذه الغزوة كان بفضل ألوية حرب لا تشدها عن مبتغاها هاجرة ولا دُلجة، وهذا تعبير صريح عن الرغبة

الجامحة التي كانت تحدو هؤلاء المسلمين في نشر كلمة الإسلام وتحرير الأرض من ربقة المشركين، ويقر الشاعر أن هذا النصر قد أفضى إلى نتائج دينية هامة تمثلت في إخراج المارقين من ديار الشرك وإدخالهم قبّة الدّين الحنيف، فيقول:[13]

❖ وأصبح النصر معقودا بألوية ❖ تطوي المراحل تهجيراً وإدلاجا
أدخلت في قـــبّة الإسلام مارقة أخرجتها من ديار الشرك إخراجا

وكما جعل ابن عبد ربّه لهذا النصر نتائج دينية جعل له أيضا نتائج سياسية حصرها في غلبة الناصر للأعلاج، واسترجاعه الوطن الضائع، وتمكنه من إقرار الأمن والاستقرار في هذه الأرض التي طالما أفسدها المشركون، فقال:[14]

❖ غادرت في عِقوتَي جيّان ملحمة ❖ أبكيت منها بأرض الشرك أعلاجا
في نصف شهر تركت الأرض ساكنة من بعد ما كان منها الظهر قد ماجا

ويختم الشاعر حديثة عن النصر بمدح الخليفة الناصر والتّذكير بخصاله المحمودة ويجعله حاكماً يحسن تدبير الأمورالسياسية وقائداً يتقن القواعد الحربية حتى إنّه ينعته بالخرّاج والولاّج كناية عن ذلك. ويستشرف من هذا الانتصار أنه سيملأ الأرض عدْلاً بالقدر الذي ملئت به جوراً ويوضّح للمعروف منهاجا. وإيمانا منه بتمايز هذا الرجل يجعله مخلوقا من جوهر العقبان الخالصة وليس من نطفة أمشاج ويُكبِر فيه تسمّيه بالخلافة لأنّه أهل لها، وفي ذلك كلّه يقول:[15]

❖ وُجِدت في الخبر المأثور منصلتاً ❖ من الخلائف خرّاجا وولاّجا
تملأ بك الأرض عدلاً مثل ما ملئت ❖ جورا وتوضح للمعروف منهاجا
يا بدر ظلمتها يا شمس صبحتها ❖ ياليث حومتها إن هائج هاجا
خلقت من جوهر العقيان خالصة ولم تكن نطفة في الصلب أمشاجا
إنّ الخلافة لن ترضى -ولا رضيت- حتى عقدت لها في رأسك التاجا

ويلاحظ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر قد استشعر هذا الحسّ بالعظمة في نفسه منذ حداثة سنه وعبّر عنه شعراً في بيتين قالهما مفتخراً بجلال قدره وسمّو شأنه، فقال:[16]

لا يضرّ الصّغير حِدثان سنّ ❖ إنّما الشأن في سعود الصغيرِ
كم مقيم فازت يداه بِغُنمٍ لم تنله بالرّكض كفّ مُغيرِ

ولعلّ ما حقّقه الحكّام الأمويون بالأندلس من انتصارات للدّين والسلطان هو الذي دفع المقري إلى القول عن دولة بني أميّة بهذه الارض بأنها "كانت أنبل دول الاسلام وأنكاها في العدوّ وقد بلغت من العزّ والنصر ما لا مزيد عليه"[17]. وهذا يعكس حرص هؤلاء الحكام على سلامة البلاد ووحدة ترابها وعزّة الاسلام وأهله، وذلك إن بالحرب وإن بمعاهدات السّلم التي تعقد بين قرطبة والمغلوبين من الفرنجة والتي كان انتقاضها يعد دعوة إلى الحرب عليهم كما حصل في سنة 324هـ لمّا "نقض الطاغية رذمير بن أردون صاحب جيليقية -لعنه الله- السلّم لما استجاش به المارق محمد بن هاشم صاحب سرقسطة على المسلمين وداوره بكل رقية حتى نكث عهده (...) فكبّه الله في وجهه ورجع حسيراً خائبا ممّا رجا مغلولا (...) وجاشت الفرنجة أيضا في هذا الوقت بالثغر الأعلى راجين بانتهاز فرصة ليصيبوها فخرجوا على المسلمين مع صاحب برشلونة (...) ووقعت بينهم حرب شديدة صبر فيها المسلمون صبراً عظيماً فرزقهم الله النصر وهزم أعداء الله المشركين"[18] وتذكر المصادر أن الشعراء قد هنأت الناصر لدين الله بما أتاحه الله منها من ذلك قول ابن عبد ربه:[19]

يا ناصر الدّين هذا النصر قد نزلا ❖ وأحمد الله كفرا كان مشتعلا
حكت حنيْناً وبدراً وقعة نزلت بالمشركين أراحت منهم السّبلا

ويتضح أن الشاعر في هذين البيتين الشعريين قد استلهم عظمة النصر الذي حققه الخليفة على رذمير من التاريخ السياسي والعسكري الإسلامي، وبخاصة من غزوتي حنين وبدر وذلك لأهميتهما في مسار بناء الدولة الاسلامية. وكما استحضر الشاعر هذه الحوادث الاسلامية المجيدة لمماثلة الصورة السياسية لهذا النصر استحضر أيضا اللّغة القرآنية لصناعة سياقة الشعري والكشف عن سموّ انتصار المسلمين بغض النظر عن تقليدية الاقتباس وفعل المخزون اللّغوي، كما نجد ذلك في قوله عن غزوة مَطُونية التي قاد جيشها الحاجب بدر بن أحمد وظهر فيها المسلمون على المشركين سنة 306هـ:[20]

تغلغل العجم بأرض العجم ❖ وانحشدوا من تحت كل نجم
فأقبل العلج لهم مغيثا ❖ يوم الخميس مسرعا حثيثا
بين يديه الرَّجلُ والفوارس ❖ وحوله الصلبان والنواقس
وكان يرجو أن يزيل العسكرا ❖ عن جانب الحصن الذي قد دمّرا
فاعتاقه بدر بمن لديه مستبصرا في زحفه إليه
حتى التقت ميمنة بميسرة واعتنّت الأرواح عند الحنجرة
ففاز حزب الله بالعلجان وانهزمت بطانة الشيطان

ويستنتج ممّا سبق أن عودة ابن عبد ربّه إلى التاريخ الاسلامي والنصّ القرآني لاستلهام الآليات الشعرية قد تُشكّلُ نوعا من أنواع التجاوب السّياسي والفنّي مع حدث النصر المحقق وتكشف، في الوقت نفسه، عن سيكلوجية الارتباط بالأصول التي تحدد معالم الشخصية العربية الاسلامية. ويلاحظ أن هذا التجاوب بين الشاعر والنصر يأخذ أشكالا تعبيرية مختلفة عند شعراء هذا الاختصاص، ولعلّ ظروف الحدث هي التي فرضت عليهم ذلك مثلما نجد في شعر محمد بن شخيص بخصوص مغادرة جعفر بن علي وأخيه يحيى للسّلطان مَعَد ين إسماعيل وانقلابهما على دعوته وانتصارهما للخليفة الحكم المستنصر وإقرارهما بحقّه. وقد عبّر الشاعر عن هذا التجاوب بلغة الانفعال والعواطف والأحاسيس كالتباشير وبشرى السرور والسّعود الطوالع وغيرها من العبارات الدّالة على ذلك في قوله:[21]

بأيمن اقبال وأسعد طائر ❖ تباشير محتوم من الأمر واقع
توافت بملكٍ من معدّ مقوّض ❖ لملكٍ إلى المهدي مروان راجع
فيالك من بشرى سرور تضمنت بلوغ الأماني عن سعود الطوالع

ويلتقي أحمد بن عبد ربه بابن شخيص في هذه اللغة للتعبير عن تجاوبه النفسي والسياسي مع حدث النصر، ومن ذلك قوله في انتصار المسلمين في غزوة مطونية:[22]

فتمّ صنع الله للإسلام ❖ وعمّنا سرور ذاك العام

وقد يؤدّي هذا التناغم النّفسي والسياسي مع الانتصار المحقق ببعض الشعراء إلى المزج في تعابيرهم الشعرية بين لغة الأحاسيس والعواطف والابتهال إلى الله بالحمد والشكر إقراراً منهم بأنّ الله تعالى هو الذي نصر الخليفة وجيشه إذ نصروه. ونجد ذلك واضحا عند محمد بن شخيص بعد اكتمال سرور الحكم المستنصر "بالظفر بحسن بن قنون الحسني ومثواه بين يديه باهشا بالطاعة واتساق بسلطانه ذاك ببلد العدوة"[23] ومن ذلك قوله:[24]

حتّى إذا مادنا من حوز بيضتنا ❖ والنفس تخفق والاحشاء تضطرب
لاقى الجموع التي خيلت بوطأتها ❖ شمّ الرّبى كالدبا من حوله تثب
جاءت بأجمعها لله شاكرة وللهدى نخوة تترى وتنسرب
أشياع مستنصر بالله نصرتها صدق البصائر لا التمويه والكذب

ويلتفت الشاعر الاندلسي كعادته إلى ما حوله من حوادث سياسية واجتماعية ودينية ويعمل على ربطها بحدث النصر ليرسم صورة سياسية وافية لحال السلطان في غمرة ذلك، ثم يرصد تداعيات هذه الحال على الجيش والرّعية وما فاض عليهم من خيرات وبركات وأرزاق؛ وهذا ما نستشفه من قصيدة محمد بن شخيص نفسها التي قال فيها:[25]

فاضت على جندك الأرزاق وارتفعت ❖ بكل قوادك الاقدار والرّتب
وعمّ من نيلك الصافي صوائفاً ❖ غيث إذا قيل سكب السّيْب ينسكب
نصر عزيز وعام مخصب رغد للفطر تدعى به أيامك القشب

ولا يخفى على أحد ما في هذه الأبيات الشعرية من تقويم اقتصادي واجتماعي وسياسي للوضع المعيش في ظل قيادة الحكم المستنصر، وهو تقويم إيجابي في نظر الشاعر يعكس رضا الرّعية والجند معاً على السلطان القائم. وقد يتعدى مثل هذا التقويم عند شعراء الأندلس الوضع الدّاخلي للبلاد إلى مخلفات النصر في دار الحرب تعبيرا منهم عن الهزيمة النّكراء التي لحقت بالعدوّ.

ولعلّ هذا العمل يندرج ضمن سياسة الحرب النفسية المنتهجة في مثل هذه الصراعات العسكرية بغرض إرباك الخصم، وحسبنا هنا ما قاله ابن دراج القسطلي في انتصار المنصور بن أبي عامر على ملك قشتالة غرسية بن فرذلند وفتحه "قلنية" سنة 384هـ[26].

قمر توسط من مناسب يعرب ❖ قمم السّناء وذروة الأنساب
❖
صدقت به في الله عزمة مخلص ❖ تركت ذماء الشرك رهن ذهاب
❖
بكتائب عزّت بها سبل الهدى ❖ ومحت رسوم الكفر محو كتاب
غادرت أرضهم كأنّ فضاءها أغوال قفر أو سهوب يباب
تحتثّ سالكها بغير هداية وتجيب سائلها بغير جواب

وهكذا نستطيع أن نقول إنّ الانتصارات التي كان يحرزها المسلمون على أعدائهم من الفرنجة وغيرهم قد مثلت في اعتقاد الشاعر السياسي بالأندلس أقوى مظاهر السلطان وجسّدت في الوقت نفسه سيادة الدّين الاسلامي والدّولة الأندلسية وعظمتها بين مثيلاتها بالمنطقة، ولذلك وجدنا هذا الشاعر يزهو بهذه الانتصارات ويسعد بنتائجها العسكرية والسياسية في شعر عكس عنده منتهى لحظات الافتخار بالحاكم والدّين والوطن.

الهوامش

1)- الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، (ط2)، سنة 1980م، ص259.
2)- المقتبس من أنباء أهل الأندلس تحقيق د.محمود علي مكي، دار الكتاب العربي بيروت، (د،ط)، سنة 1393/1973م، ص311.
3)- المصدر نفسه، ص311.
4)- المصدر نفسه، ص319-320.
•)- اسم الشاعر غير موجود في المصدر نفسه، ص337.
5)- المصدر نفسه، ص338.
6)- ديوان ابن عبد ربه، جمع وتحقيق د.محمد رضوان الدّاية، مؤسسة الرسالة بيروت، (ط1)، سنة 1399هـ/1979م، ص35.
7)- سورة النصر، الآية 1-2.
8)- ديوان ابن عبد ربه، ص35.
9)- الحرب والسلم في شرعة الاسلام، د.مجيد خدوري، الدار المتحدة للنشر بيروت، (ط1)، سنة 1973م، ص122-123.
10)- ديوان ابن عبد ربه، ص36.

11)- ينظر: الحرب والسلم في شرعة الاسلام، ص238.
12)- ديوان ابن عبد ربه، ص36.
13)- المصدر نفسه، ص36.
14)- المصدر نفسه، ص36.
15)- المصدر نفسه، ص36-37.
16)- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق د.احسان عباس دار صادر بيروت، (د.ط) سنة 1408هـ/1988م، 1/355-356.
17)- المصدر نفسه، 1/327.
18)- ديوان ابن عبد ربه، 137.
19)- المصدر نفسه، ص137.
20)- المصدر نفسه، ص190-191.
21)- المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق د.عبد الرحمن علي الحجّي دار الثقافة بيروت، (د.ط)، سنة 1965م، ص54.
22)- ديوان ابن عبد ربه، صّ191.
23)- المقتبس (د.علي الحجي)، ص155.
24)- المصدر نفسه، ص161.
25)- المصدر نفسه، ص162.
26)- ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق د.محمود علي مكّي المكتب الاسلامي، (ط2)، سنة 1389 هـ، ص14-15.